وداع

الرحلة الأخيرة إلى إيتيل عدنان

من حزيران تونس وصولاً لقرية البحر

تدريب

شرف إيتيل
نجوان درويش

طالما اعتبرت إيتيل عدنان نفسها شاعرة عربية رغم كتابتها بالفرنسية والإنكليزية، ليس لأنّ في تجربتها امتدادًا لتقاليد الشعر العربي، فهي تبدو منقطعة الصلة بها إلى حد بعيد؛ وإنما لانتمائها إلى مشروع سياسي تحرّري عمره من عمرها تقريباً. هي شاعرة عربية بالمعنى السياسيّ الجذريّ للكلمة؛ الاكتراث بالإنسان والأرض ومقاومة الظلم والمنظومات الاستعمارية. ولهذا حظيت باحترام النخبة التحرّرية في العالم العربي رغم خياراتها الفنية التي تبدو صعبة ومتطرفة في مرآة الثقافة العربية. وبالتالي لم تجعلها جميع اغتراباتها اللغوية والمكانية شاعرةً غريبةً بالمعنى السلبي للكلمة، ولم تكن بالتالي مُستغربةً ولا مُستشرقة في ثقافتها الأم. لا أحد مثلها يَختصر هُويات الشرق العربي: والدها سوري دمشقي عثماني الثقافة، والدتها يونانية إزميرية، مسقط رأسها بيروت، مسلمة ومسيحية وعلمانية، شرقيةٌ تعتز بجميع مكوّناتها وغربيةٌ بلا عُقد وأمراض. عاصرت وصادقت أجيالاً من الكتّاب والفنانين العرب، وفي هُويتها الشخصية التقتْ هُوياتُ المنطقة ضمن رؤية حضارية متصلة بخيوط خفيّة مع العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية. إنسانة استثنائية وفنانة وشاعرة بالغة الخصوصية، عملها الجدليّ المخالف للإجماع باتَ يَحصد إجماعات عديدة، تجربة تبقى مفتوحة وقوسُها لا يُغلق برحيل صاحبتها. شموس إيتيل الصغيرة ستعيش طويلاً، وستظلّ تضيء.

كما في الرسم وفي الكتابة، قبضت إيتيل عدنان على الإيقاع كما تفعل العصافير التي تنتظر التيار الهوائي الذي إذا ما وجد ته سافرت. الرحلة الأخيرة حتماً ليست هي النهاية

خالد النجار

لم أكن أدري عندما ذهبت هذا الصيف إلى قرية ايركي البحرية في منطقة البريطاني لزيارة إيتيل عدنان وسيمون فتال أنني ذاهب لأودع إيتيل عدنان. الآن والليل يخيّم على خليج الحمّامات في مكالمة سريعة وصوت حزين اعلمني صديقي نجوان درويش أن إيتيل غادرت قبل ساعات.

فجأة انضغط الزمن رأيتني أنا و«حياة» قبل أربعين سنة مع إيتيل وسيمون فتال، في ذلك الربيع البعيد جاءت تونس للمشاركة في البينالي العربي الأول. أرى خيال صورتها منعكساً في زجاج قهوة الانترناسيونال جنب صديقتها سيمون فتال الرفيعة الطويلة بسحنتها الفينيقية الإغريقية؛ تتحرّك مع إيتيل مثل ملاك لامرئي. تمضي للشارع ونعود غاطسين في عرق حرارة حزيران/ يونيو تونس. إيتيل مأخوذة بمشاهد المدينة تقول أشياء مقتضبة عن تونس التي زارتها قبلها بسنوات ورأت بورقيبة الرجل القصير يتحرك بعصبية مثل ممثل هزلي وهو يغادر الإذاعة. رأت تونس العربية المشرقية المتوسطية الكوسموبوليتية ذات الملمح الإيطالي والتي كما تقول عنها إيتيل كانت لها منذ قرطاج حوارات مع العالم.

كانت في الزيارة الأولى قد أرسلتها إحدى المجلات الفرنسية لكتابة تحقيق عن النسيج والفخار التقليدي. جاءت هذه المرة بكتابها الحروفي ذي الشكل الأكورديوني للمشاركة في البينالي العربي الأول. قالت في حوار مقتضب إن فعل الخلق فعل شعري وإن العالم قصيدة طويلة وما نكتب هو نَفَس من هذه القصيدة. تركت كتابها «خمس حواس لموت واحد»، الذي نقله يوسف الخال إلى العربية، وقرات عن جبل تامليلس الذي أحبّته... ثم رايتني في بيروت في مقهى الاكسبريس جالساً معها على الرصيف، ثم في باريس في شقتها بشارع جاكوب حين استضافتني ومنحتني ركناً في الشقة وطاولة للكتابة كتبت عليها أجزاء من تحقيق عن زيارات الصهاينة الأولى للقاهرة، ثم غادرت فجأة.

وتواصلت لقاءاتنا وحواراتنا. كانت إيتيل مزيجا من طفلة ورسولة، تسكعنا في باريس وبيروت وتونس ورأيتها ترسم بتلك السرعة الفائقة كما يفعل جماعة نيويورك في تعبيرهم التلقائي والآتي من الأعماق التي كثيراً ما يتجنبها الناس. هي ترسم كما تكتب وتتحدث بشكل غريزي متبعة حدسها.

رافقتها في لقاءات باريس في «ربيع الشعراء»، الذي ينتظم كل ربيع قرب شقتها في شارع مادام. وفي لوديف، وفي مؤتمر الكتّاب في الدائرة الخامسة بباريس، نقلتْ ونشرت كراريسها الشعرية عن دار التوباد، أحببت كتيبها «نساء ومدن» و«الست ماري روز» روايتها المفردة و«باريس حين تتعرى»...

ترانى أفكر فيها كلما مررت في ساحة سان سولبيس ورأيت الحمامات الزجاجية تطير فوق النافورة. أرى إيتيل جالسة على رصيف المقهى المواجه للكاتدرائية المهيبة حتى وإن كانت غائبة. أحببت رسومها ولوحاتها الزيتية وألوانها السعيدة وصورها الشعرية الغنائية السريالية، أحببت رؤاها الفلسفية الغريزية هي أيضا، فإيتيل لا تتعاطى التجريد، كل ما يصدر عنها ممتزج بحياتها... كانت إيتيل منحازة باستمرار للإنسان المقهور، كتبت عن الجزائر الثورة، وعن العراق الذي حوله الأميركان إلى فرن والصحافية، منذ ركنها القديم في صحيفة لوريون دي جور باللغة الفرنسية. إيتيل المفردة في ميدانها، خاضت تجربة الموت بيد أنها بالتأكيد لم تنته.

إيتيل؛ أي ريح خريفية ولدتها؟

كتبت يوماً عن جذورها تقول:

«عشت مع شخصين الواحد منهما غريب عن الآخر. تربيتي في المدرسة كانت تعتمد على الكتب بدون أن تكون لها أي علاقة ببلبنان حيث كنت أعيش، كنا ثلاثة أشخاص من ثلاثة عوالم مختلفة. وهذا ليس بالشيء التراجيدي بيد انه مهم ما دامت المعضلة لا تقتلك فهي ترتفع بك، تساعدك... التاريخ هو الذي يكتب كتبي. أتمنى أن أتحدث عن شيء آخر ولكن ذلك مستحيل، غيرنيكا لوحة بيكاسو لدي هي القيامة العربية والرسم لدي يعكس الجانب العالمي.

أحب الموسيقى كخوص فيها، لقد ساعدتني عندما كنت أدرّس تاريخ الفن، ثمّة معنى خفي في الفن التجريدي كما في الموسيقى. لا يتطلب الإيضاح والشرح، كتابة الموسيقى كما في الرسم وفي الكتابة هو أن تقبض على الإيقاع كما تفعل العصافير التي تنتظر التيار الهوائي الذي إذا ما وجدته سافرت».

إيتيل، أجل، الموت ليس هو النهاية.

(شاعر ومترجم من تونس)

إيتيل عدنان في برلين، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 2012 (Getty)

> آمنت أن فعل الخلق فعل شعري وأن العالم قصيدة طويلة

> ترسم كما تكتب وتتحدث بشكل غريزي متبعة حدسها

احترق فيه شعبه وعن الهندي الأحمر الذي سقى بدمه وهاد كاليفورنيا، الهندي الذي يبعث اليوم من رماد قوة أخلاقية روحية لا مرئية تعذب جلاديه.. وعن فلسطين بالطبع. عندما انتهت المكالمة الحزينة مع نجوان استعدت صورة إيتيل وهي شابة في الأربعينيات في مقهى الانترناسيونال. تقول لي وضعت «كتاب البحر» و«كتاب الموت» وليه «كتاب النهاية»، لأن الموت ليس النهاية... أجل الموت ليس النهاية.

إيتيل الشاعرة والرسامة والروائية وكاتبة السيرة وأستاذة فلسفة الفن في جامعة بركلي وكاتبة التأملات والمقالات الفكرية

أنت اليوم نور

عزيزتي إيتيل، اذهبي أيتها الروح الحبيبة متشحة بنعمل كاملة، بكامل الوائك، بكامل حبّك الشرس، روبتك فسيحة مثل جبال تملبايس، شاسعة روحك كعرافة في دلفي، صوتك في منحنى الأزرق كمثل ماء بيروت. نحن معك في هذه الأماكن، مثلما نكون معك بين صفحات كتبك الجزلة التي لا تعد ولا تحصى، ما زالت لوحاتك بادية الفرح حتى الآن في غوغنهايم، بالأمس كنت في السادسة والتسعين، وأنت اليوم نور، أنت نور، أنت نور. **(سارة ريغس)**

إضاءة

حين نُهدر نقطة لقاء بين الفنون والألسن والحقول المعرفية

بعيداً من الجزيرة المعزولة

> إلّا تحضُرَ إيتيل عدنان بقوة في ثقافتنا يعني ألا نعطي انفسنا فرصة لمعرفة كيف يمكن اجتراح اعتراف عالمي بأدوات الفن والكتابة وليس عبر التسويق

شوقي بن حسن

أقرأ أنّ «جمعية دراسات الأدب المتعدّد الإثنيات» (أميركا) قد صنّفتها، في 2003، كـ«أهم وأشهر كاتبة عربية-أميركية»، ثم أنظر حولي، في ثقافتنا العربية، وهي التي تنحدر منها، فلا أجد سوى القليل من حضور إيتيل عدنان بيننا. تملأ معارضُها الاستعادية العالم، لكنها نادرة في مُدن الغاليرهات العربية، من بيروت - مسقط رأسها - إلى طنجة. وينشغل بمنجزها نُقّاد الفن ويحاور تجربتها تشكيليون من القارات الخمس، وقلما نعثر بينهم على فنانين يشتركون معها في الثقافة الأم. كما لم تتحوّل تجربتها الأدبية إلى رافد يغذّي بمعجمه وأبنيته ومزجته الخيال العربي. وقل الأمر ذاته، أو أكثر، عن كتاباتها النقدية. لم يصل إلى اللسان العربي سوى جزء يسير، بفضل خالد النجار وسركون بولس أساساً، من بين عشرات العناوين بالفرنسية والإنكليزية، وجسور الترجمة الممدودة بين هاتين اللغتين، وفي قائمة العناوين هذه يوجد الشعرُ والسرد والدراسات.

ربما تطمئننا، نحن عرب القرن الحادي والعشرين، بعض الترجمات إلى أن مبدعاً ما بات حاضراً بيننا، لكن الحضور لا يمكن أن يقتصر على جسر واحد، هو الترجمة، لأن الثقافة لا تُختزل في الكتابة فحسب، ثم إن المؤلفات ليست سوى بُعد وحيد من تجربة عدنان. فقد كانت الشاعرة اللبنانية (السورية الأصل والأميركية الجنسية والفرنسية الإقامة) نقطة لقاء بين الفنون والألسن والحقول المعرفية، وكانت تجربة ممتدّة في الزمن عرفت كيف تجدّد خلاياها وفي نفس الوقت تحافظ على خيط ناظم.

ربما وحدها كُتب السيرة العميقة يُمكنها أن تنقل هذا التعدّد في إطار واحد. فهل يوجد في ثقافتنا من نهض بهكذا مشاريع؟ وقبل ذلك هل وُجدت عندنا، أصلاً، تقاليد كتابة سيرة الفنانين والشعراء والروائيين؟

> أن تحضر إيتيل عدنان في الثقافة العربية يعني أن نجد مكتبة حولها

غالباً سننتظر أن تُكتب سيرة من هذا النوع بالفرنسية أو الإنكليزية ثمّ نترجمها. وإن رحيل المبدعين من أصول عربية كثيراً ما يضاعف شهرتهم، وبالتالي يخلق استعداداً أكبر للاشتغال عليهم، لسبب بسيط هو أن منظومة الصناعة الثقافية، من الباحثين إلى الناشرين، تكتشف حجم الشخصية الراحلة في مثل هذا مناسبات. وعادة ما يحدث ذلك من خلال اعتراف الثقافات الأخرى وليس بشكل مباشر يعبّر عن حاجة ثقافتنا لاستقبال شخصية إبداعية ما.

أن تحضر إيتيل عدنان في الثقافة العربية يعني أن نجد مكتبة من الدراسات الفنية والأدبية حولها. أو على الأقل أن نجد لها أثراً في الإحالات البحثية بالعودة إلى كتاباتها أو إلى أعمالها الفنية. وكل ذلك مفقود أو يكاد. ها أنا، بمناسبة كتابة هذه المقالة، أراجع فهرس الأعلام الوارد في «معجم مصطحات الفنون البصرية» الصادر حديثاً في تونس (سامي بن عامر، حزيران 2021) فأجد عشرات الفنانين الغربيين والعرب، ولا أجد اسم إيتيل عدنان. كنتُ أنتظر مثل هذا الغياب، لأنه مائل حيثما ولّينا وجوهنا. أحياناً تكاد تخفي هذه الحقيقة استعمالات صحافتنا الثقافية للوحاتها، ما جعل عوالمها البصرية مألوفة إلى حدّ.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

إيتيل عدنان مع مترجمتها الشاعرة الأميركية سارة ريغس عام 2017 (العربي الجديد)

شذرات سيرة

وُلدت إيتيل عدنان في بيروت عام 1925 لأب سوري مسلم من دمشق كان ضابطاً عثمانياً في حامية بيروت، ولأم يونانية مسيحية من مواليد إزمير، واصطبغت حياتها بهويات المشرق العربي المتعددة وحسنة التجاور. وفي بيروت، بدأت حياتها الادبية وأصدرت مجموعتها الشعرية الاولى.

كتبت معظم اعمالها بالفرنسية في الجزء الاول من حياتها، والإنكليزية في ما بعد، كموقف سياسي من المكوّن الاستعماري في الثقافة الفرنسية، وطالما اعتبرت نفسها «شاعرة عربية تكتب بالإنكليزية والفرنسية»، وان لم تتعلّم العربية لتستطيع الكتابة بها، وكانت تتحدث الى جانبها التركية واليونانية، وكثيراً ما كانت تعتز بهذه المكوّنات الثلاثة في هويتها.

غادرت مسقط رأسها في الرابعة والعشرين من عمرها، حين ذهبت لدراسة الفلسفة في جامعة السوربون بباريس، وقد دفعتها ميولها الإبداعية إلى التخصّص في فلسفة الفن، ومن ثمّ قررت مواصلة رحلة تحصيل المعرفة في الجامعات الاميركية، لتدرّس الفلسفة لاحقاً في جامعة «بيركلي».

حظيت إيتيل عدنان في السنوات الاخيرة بالكثير من التكريمات العالمية، خصوصاً في المجال الفني إذ نُظّمت معارض استعادية لمجمل تجربتها الإبداعية عبر محامل اللوحة والكرّاسة الورقية والكتاب الفني، ومنها معرض استعادي في متحف غوغنهايم النيويوركي وآخر انطلق في السادس من الشهر الجاري في مدينة ميتز الفرنسية.

قصائد

لا أريد لكوكبنا نهاية مثل هذه

أزهار كبيرة تسقط بعد الأمطار

إيتيل عدنان

يوم في نيويورك
أو من ألف إلى ياء

ا
هل تؤثر
عليّ
الغراب والبقرة
أنا:
اللغة
والغيمة؟

ب
نيسان
أقسى الشهور
كانون الأوّل
الأكثر عتمة
سماء الغبار الذرّي
والإيست ريفر
اختفيا
ومانهاتن تعلو
من جديد
مكان
الشمس

ت
أزهار كبيرة
تسقط
بعد الأمطار
وصموئيل بيكت
يشرب
شايه
في ركن شارعي
ووستر
وسبرنغ

ث
أخبار...
واحد
وثان
حاكم المدينة مات
من أقصى الشرق
حتى الغرب
كانت القطارات
تسقط
قطعاً
كما
قبلاً
سقطت مارلين مورو

ج
لرونالد
بنطلونات فضفاضة
للمستقبل قمر
بين رجليه
لاعباً
بالكرة

ح
قرشان
يلقيان فوق البساط
يجعلان امرأة
تنحني
مثل جندي
عاد
من الحرب

خ
هناك ضجيج كبير
في هذه الأزمنة
حتى الملائكة
مغطاة الوجه
بالدم
لو قلت لك أحبّك
فهل تعتقد
أنّ القطارات
ستحلّق
في الليل

د
ليكن
أتيت
حاماً فيك
المدرّج
حاملاً
القهوة
وأنا أضعت
مفتاح
الرَّبدة

سحب تتمدّد

أيتها السحب التي تتمدّد حاملة
الرصاص
إنّك تثقلين على هذه الأرض
كنتُ أردت أن أغنّي أوبريتات من
نحاس
تحيّة لجبال السيبيزا
وأمام الأجسام المَيّتة
للأطفال الزّهور
ولكن كلّ شيء ينتهي إلى صراخ وصمت

الأجداد الجدد يثوون
في أسافل جبال أخرى
وفي قبور أخرى

مالكولم إيكس، مارتن لوثر كينغ
عبد القادر المتصوّف والمحارب

وأنتم يا قوّاد الهنود الحمر دموعكم
تشكل العواصف الكبرى
لكاليفورنيا

أجيء أقول لكم
أنّنا نقف وحيدين

(ترجمة عن الفرنسية: خالد النجار)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

إيتيل عدنان في بيتها بباريس، في نيسان/أبريل 2015 (Getty)